عبقرية محيطة

ليوناردو داڤنشي

لاديب عباسي

عصور الانتقال الحاسمة هي احفل عصور التاريخ بالمتناقضات وأملاها بالاضداد . في مثل هذه العصور يقترن الكفر العميد بالايمان الوطيد ، ويجاور الاخلاص للعلم السجل والتحرر ، ويواطن التعصب الذميم والحرج في التفكير الحرية المطلقة في النظر والتقدير . وعصر النهضة الذي يقع حوالي سنة ١٥٤٦ من ابرز العصور في هذه الخصائص وأقواها تمثيلاً عليها . ففيه ابحت حرية التفكير وفيه استبيحت هذه الحرية . كان فيه العلم الراسخ وكان فيه الجهل الفاضح . ساد فيه الالحاد الجريء ، وساد فيه ايمان العجائز . كان فيه حمق الجمهور وجموده ، وكان فيه تساهل العلم وسعة المعرفة . وقلما قوم في تمجيد القديم والجمود عليه والافاضة بذكره واغرق قوم آخرون في تحدي القدماء وقديمهم والزراية عليهم وعلى ارثهم الذي ورثوا . كان فيه الحب الحضري والهوى الافلاطوني ، وكان فيه الحب الدنس والهوى الاثيم يتمثلان في قصص بوكاشيو وما يروى عن آل بورجيا من حب الاب لابنته والاخ لاخته

وتعليل ذلك — في رأينا — هو ان هذه العصور تجيء زاخرة مفعمة ، وتحل غالباً حلولاً مفاجئاً دون تمهيد طويل او سبق انذار ، فتحدث ما لا بدّ ان تحدث من ارتجاج في العقائد واضطراب في الاخلاق واحتراب بين الافكار في الفئة اللينة المطاوعة ، وتحدث ما لا بدّ ان تحدث من صلف وعناد بين الفئة الجامدة المحافظة التي تزيد محافظة وجموداً كلما ازدادت موجة التجديد في الازدهار وامعن تيارها في الهجوم . وتظل هذه الفئة على موقفها من الجمود ريثما تعمل الموجة عملها ويفعل التيار فعله من زعزعة الاركان وتقويض البنيان في عقائد هذه الفئة واخلاقها

وليوناردو الذي نترجم له في هذه الصفحات يمثل لنا في شخصه معظم نواحي العصر الايجابية ابلغ تمثيل . ولا يمثلها بالوقوف منها موقف المرآة من المرئيات تنعكس عنهُ صور النهضة واشكالها وترتسم فيه دون ان يكون له اثر في ازجائها وازدهار تيارها . انما هو يمثلها في انهُ كان رائداً من روّادها الاولين وعاملاً من اقوى العاملين على تقويض صرح القديم واقامة الجديد على انقاضه قويّ الاساس ثابت الاساس . وهذا لم يكن بالكثير على ليوناردو ، وهو في ذلك العقل الجبار والعبقرية النادرة والاكتمال الذهني المحيط . ولعلّ التاريخ لا يحفظ لنا اسماً كاسم ليوناردو من حيث الاحاطة

والشعر مع العمق في التفكير والاجادة في نواحي العلم والفن الى حدود العبقرية والاعجاز . يذكر لنا التاريخ اسمين غير اسم ليوناردو — ارسطو وغوته . ولكن يقيناً انهُ لا ارسطو ولا غوته بلغا مبلغ ليوناردو عمقاً واحاطة في ناحيتي العلم والفن . فالاول كانت اجادتهُ في ناحيتي العلم والفلسفة والثاني تركزت عبقريته في ناحية الفن ، وان كان له نظر صائب في بعض مسائل العلم . وهذا يفسر الى حدٍّ لماذا ظلَّ اسم ليوناردو مقصوراً ادلَّ على الاستحالة منهُ على الامكان وألحق بالخرافة منهُ بالواقع . ويفسر لنا ايضاً لماذا احيطت شخصية ليوناردو بالشكوك والظنون رغم نصوع هذه الشخصية ووضوحها . فقد اتهم بالسحر ، وهو علم السحر الاكبر . ورُمي بالكفر ، وكانت آخر كلماته على فراش الموت في ذكر الله والفزع اليهِ . وروّج عنه انهُ يسمُّ الاشجار ويدس بثمارها الى الناس ليرى هل انتقل فعل السم الى الثمر ، وهو الذي تدركه الرأفة بالطائر الحبيس ، فيبتاعهُ ليطلق جناحه ويهبه الحرية الغالية

وليس في هذه الخصومة بين الجمهور وليوناردو خروج على القاعدة العامة التي يجري عليها التاريخ في معاملة المبتكرين والعباقرة . فالعبقري دائماً مثار للارتياب وهدف للوقيعة وغرض يُرمى لحماقة الجمهور وانانيته . يشعر هذا الجمهور بالحطة والصغار وضآلة القدر اذ يقيس اقدارهم الى قدره فيحاولون ان ينزلوه الى مستواهم الذي يضطربون فيهِ . ذلك لانهم لا يستطيعون الصبر من مستواه ليساووه ويشعروا معه بشيء من وحدة الحال والتقارب ويحققون غالباً في محاولاتهم هذه فيلفونهُ في ضبابة من الريب ويجللونهُ بغمامة من الشكوك . ولم لا يحقد الجمهور على ليوناردو وهو القائل فيه وفي متعلميه :

« ديدان كتب وعبّاد لارسطو (لاحظ هذا !) ، غربان في اثواب طواويس واصداء تردد ما يقوله الغير ، يتطفلون لانفسهم زينة ليست لهم ، ثم لا يريدون ان يتركوا لي حتى يديَّ اللتين جنيت . ان بين مستوحي الطبيعة ومقلدي القدماء فرق ما بين الجسم وصورته في المرآة . انني لا استطيع ان استشهد ، ولا احب ان استشهد بأقوال القدماء ، انما استشهد بما هو اصدق من الكتب والاقوال — استشهد بالاختبار والتجربة : « الاستاذ لكل استاذ »[1]

اضف الى ما تقدَّم من عوامل المباعدة بين ليوناردو وابناء عصره انهُ كان يقوم بتجارب واختبارات علمية كانت تظهره في نظر معاصريه بمظهر العابث الذي يقتل الوقت ويهدر الزمن في غير طائل . فقد رُوي انهُ كان ذات يوم يجرب تجربة كيماوية في مختبره . وفيما هو منهمك في عمله شاهد الخادم تهرول وبيدها « دلو » من الماء تهمُّ بسكبهِ على المنضدة . ولولا ان امتدَّت يد ليوناردو بسرعة البرق الى الفتاة ، لكانت افسدت عليهِ وعلى العالم عمل سنين واغرقت كل ما تكدَّس على المنضدة من رسوم واشكال وصور ومخطوطات لا تقوَّم بمال ولا تقدر بثمن . ولما سألها ليوناردو

(١) القطع المحصورة بين اقواس مترجمة عن كتاب « حياة ليوناردو » لمرجنسكي

فيما همَّت ان تصنع اجابت : رأيت كأنَّ النار تنتهم المنضدة فبادرت اخذها بدلو من الماء . فضحك عندها ليوناردو وصرف الفتاة صرفاً جميلاً بعد ان ابان لها ان ما رأت لم يكن بنار ، وانهُ انما كان يلهو ، وان ما شاهدتهُ وخالتهُ ناراً لم يكن الاَّ دخاناً متصاعداً لبعض المساحيق الخاصة

وزاد في المباعدة ما بين ليوناردو ومعاصريهِ ايضاً ان كانت لهُ صفات جسمانية مميَّزة اشتركت مع صفاتهِ العقلية البارزة في إفراده من بين هؤلاء المعاصرين إفراداً قويًّا واضحاً . فقد روي انهُ كان لفرط قواهُ الجسدية يعمد الى لعل الفرس ويلويهِ كما تلوى قطعة من الرصاص . ويروي التاريخ مؤكداً انهُ كان يرسم ويصوِّر بكلتا يديهِ في اجادة متعادلة لليدين . ثم كان ليوناردو يكتب بيسراه وبشكل لا يستطيع امرؤٌ معهُ قراءة خطهِ الاَّ معكوساً في مرآة . وكان معاصروهُ يتخذون ذلك حجة يؤيدون بها ظنونهم في المكان ليوناردو على السحر والشعوذة اذ ما حاجتهُ الى هذا الاسلوب من الكتابة لولا ان ثمَّ اموراً يودُّ ان يغلب على الجمهور اكتشافها ومعرفة كنهها

هذا ما كان ليوناردو في نظر معاصريهِ ، ولكن مَن كان ليوناردو في نظر الحقيقة ؟ ليوناردو في نظر الحقيقة والانصاف رائد العصر الحديث وبشير التجديد والابداع في العلم والفن . درس مظاهر الحياة من الحياة ذاتها وليس من بطون الكتب . وكان دقيق الحس قوي الملاحظة في هذه الدراسة يقيم الدليل على آرائهِ ونظرياتهِ بالتجارب يقوم بها والاختبارات يجريها في مختبره الخاص بدل ان يعمد الى الخيال يستوحيه والقدماء يستلهمهم فيما يرى ويقدِّر . وهو في رأي بعض العلماء مؤسس علم الجيولوجيا الحديث ، فكان بمكنتهِ ان يعيِّن عمر المتحجرات من النظر الى عدد طبقاتها المتراكمة التي تدل كل طبقة منها على عدد من السنين . وبمثل هذا الاسلوب كان يقدِّر اعمار الاشجار ايضاً . فكان يجذُّ جذع الشجرة جذًّا افقيًّا فيعرف من عدد حلقاتهِ المتراكزة عمر هذه الشجرة وليوناردو نباتي من الطراز الاول . وقد كانت لديهِ مجموعة نباتية جميلة . ولعلَّهُ كان اول من حاول ان يدرس فعل السموم في النباتات والاشجار . وهذا مصدر ما كان يشيعهُ الناس من انهُ كان يسمّم الناس بثمار تغذَّت بالسم وهي لا تزال على اشجارها . ودرس ليوناردو الجسم البشري دراسة العالم المحقق ، فشرَّح الاجسام ليعرف علاقة كل عضو بوظيفته وانتهى من هذا التشريح الى حقائق خطيرة . فكان مما انتهى اليهِ ان تصلُّب الشرايين سبب من اسباب الشيخوخة والفناء وان درهم وقاية خير من قنطار علاج . ومن هنا كانت قلة ثقتهِ بالاطباء في عصره ، وقد قال ينصح صديقاً في مرضهِ : نصيحتي لك ان لا تفكر في كيف تنال الشفاء : انما النصح ان تبتعد عن الاطباء ، وبقدر ما تبتعد عنهم تنال الشفاء

وهذا الاتجاه العلمي المحض من ليوناردو صيَّرهُ حرباً على المشعوذين واصحاب الدجل . ادعى احد هؤلاء انهُ يستطيع ان يحوِّل المعادن الخسيسة ذهباً فاستدعاه امير المدينة وطلب اليهِ ان يجري تجاربه امامه . وقام الدجال بتجربته وخرجت فعلاً قطعة من الذهب اثارت رؤيتها دهشة الجميع واطماعهم

الاَّ ليوناردو الذي أخذ الدجال من يده وسار به ناحية وهمس في اذنه ان لا يُبعدها والاَّ اضطرَّ الى فضيحته . ولما كابر الدجال وابى الاعتراف بالتدجيل اضطرَّ ليوناردو الى التفسير وابان له ان قطعة الذهب التي خرجت كانت موضوعة في تجويف في اسفل العصا التي كان يحرّك بها السائل المصهور على النار ، واراها للجمهور وانهُ حينما احترقت السدادة التي كانت تسدُّ على قطعة الذهب سقطت هذه القطعة فتناولها على انها خرجت من السائل بعلمه وفنه . ولم يُفحر الدجال عندها جواباً ووعد بان لا يُبعدها

وليوناردو واضع قانون متوازي القوى المعروف والذاهب الى ان المادة في ابسط حالاتها ذات خصائص متشابهة لجميع العناصر . وهو اول من فكر في الطيران على اسلوب علمي بحت . وقد فحصت مخطوطاتهُ التي تبلغ ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) صفحة فوجد قسم منها حافلاً برسوم لأجهزة معقدة أعدها ليوناردو ليحاول على أساسها الطيران . ولكن لم يكن يرضَ ولا عن واحد من هذه الاجهزة والرسوم . وقد انشأ ليوناردو واحداً من هذه الاجهزة بشكل المظلات ، ولكنه لم يطمئن اليهِ وكان يشعر ان ثمة صعاباً علمية وفنية لم يتغلب عليها بعد . الاَّ ان معاونه الملحاح أصرَّ على تجريب الجهاز رغم معارضته الشديدة وتحذيره اياه من سوء العقبى . غير ان هذا المعاون أصرَّ الاَّ تجريباً للجهاز . ولم يسع ليوناردو ازاء فضوله والحاحه الشديد الاَّ اجابته الى طلبه . فاعتلى صاحبنا بالجهاز ربوة عالية وهوى مع الجهاز الى اسفل . وكان ما قدَّر ليوناردو وسقط صاحبه سقطة كادت تطير منها روحه . ولم يحاول ليوناردو بعدها ان يبني جهازاً آخر للطيران الاَّ أن هذا لم يكن ليزحزحه عن اعتقاده الثابت بأن الانسان يستطيع ان يطير ، بل هو لا شكَّ طائر يوماً من الايام نأى ذلك اليوم أم دنا ، وذلك حينما تكتمل معرفته بالطبيعيات والرياضيات . وهو يقول متنبئاً ، وقد وقف على شاهق يشاهد تحليق الطيور في إعجاب كالعبادة

« سوف توجد الجنحان . وليكن غيري موجدها اذا لم استطعها أنا . لا فرق عندي في ذلك. سوف يطير الانسان ! ان الروح لا يكذب ولا يمين. ان اولئك المجنحين سوف يكونون سنو الآلهة. سوف يُقلع ذلك الطائر الاول العظيم . وليتمجد الى الأبد العش الذي يدرج منهُ ذلك الطائر ! »

وليس ما أسلفنا ذكره من حقائق الاَّ معبراً بعض التعبير عما حفلت بهِ مخطوطات ليوناردو من علم صائب وابتكار سادق يضعه في مصاف رجالات العلم الحديث طريقة في البحث وجلداً في التتبع والتنقيب مما جعله أسبق لعصره بنحو اربعة قرون . وهذا ما حمل طالباً وفيلسوفاً رسيناً مثل هكلوك الس على القول — بعد ان درس مخطوطات ليوناردو — بأن ليوناردو مؤسس علم الهندسة الحديث وعلم الجيولوجيا والتشريح وأنهُ عالم من أعلام البحث العالمي والعلم النافع

على أن شهرة ليوناردو المستفيضة وإسمهُ الذائع لم يكونا من ناحية العلم انما جاءا عن طريق فنه الخالد — الفن الذي رفعهُ الى أعلى عليين وأحله أسمى ذرى المجد ومراتب الخلود . ويكفي المتحف من متاحف الفن شهرة واجتذاباً لحجاج الفن ان يضمَّ لوحة من لوحات ليوناردو الخالدة.

اما صورة العشاء الرباني — اعظم اعمال ليوناردو الفنية — فهي في نظر ارباب الفن أعظم عمل في بنيان قديم او حديث . . . . وليست شهرة ليوناردو منحصرة في الفن بالتصوير ، بل هو نحات في الطراز الاول من النحاتين وموسيقي بارع وكاتب مبدع في النوع الاول من كتّاب النهضة . والذي يدهش حقًّا ان يبلغ ليوناردو حد الاعجاز وانقطاع النظير من الابداع في نواحي الفن وبعض نواحي العلم ، ثم لا يتطرّق الوهن الى عمل من اعماله الفنية . ولعلّ هذا ان ليوناردو رغم توزيع ميوله وبسط جهوده . ظلّ يقبل على جميع اعماله الفنية والعلمية دقيقها وجليلها اقبالاً يكاد يبلغ حد الذهول . فهو اذا ذهب احد الامسية الى الرواق الذي كان يخلّد على جداره صورة العشاء الرباني نسي العالم ونسي وجوده ولم يبق امامهُ الاّ صورة العشاء الرباني . وهو اذا اجرى في يوم آخر تجربة من تجاربه العديدة في النبات او الكيمياء كانت هذه التجربة كل ما يهمهُ من شؤون هذا العالم . واذا انصرف الى صنع درع تلبسها اكاديمية المصورين (الخيالية ؟) في ميلان نسي ان في العالم شيئاً لهُ خطر وقيمة غير هذا العمل التافه . وهكذا كان ليوناردو يقبل على جميع اعماله اقبال العابد ويقطع اليها انقطاع العاشق . فكان هذا مضافاً الى عبقريته النادرة سبباً في خروج اكثر آثاره في هذه الرتبة من السمو والابداع . هذا الى انهُ كان يقف من فنه وعلمه موقف المحاسبة الشديدة والنقد الصارم . فلم يكن يفتته عمل من اعماله عن اجتلاء مواطن الضعف ونواحي النقص فيها ، فيعمل على ازالتها واستكمالها . ولعلّ هذا كان في اول الاسباب في بقاء كثير من أعمال ليوناردو الفنية والعلمية مبتورة ناقصة

ولم يكن ليوناردو يسير في فنه بحسب الالهام والوحي فقط شأن كثير من الفنانين ، بل كان فضلاً عن استيحائه الالهام والعبقرية يسير على هدًى من العلم والمعرفة ويرصد للجانب النظري من فنه شطراً ليس باليسير من وقته وجهوده ، ولهذا الغرض درس دراسة جيدة علم التشريح وعلم الالوان والظلال فجاءت صوره وتماثيله من اصدق الصور والتماثيل في تقريب الفن من الحياة . وقد كان يقول :

« الالوان الواضحة تأسر الرعاع . ولكن الفنان الذي اخلص لفنه لا يخضع لنزوات الرعاع ، انما هو يجب ان يرضخ لنخبته المختارة الممتازة فقط . والذي يفخر به الفنان ويصبو اليه ليس الألوان البراقة اللامعة انما هو ان يكوّن من الضوء ما يشبه المعجزة . ان الضوء والظل يجعلان السطوح المستوية مستديرة . فالذي يحتقر الظلال في التصوير يشبه الشرثار الذي يضحي بالمعنى في سبيل الكلمات المجوفاء الرنانة »

هذه صورة مصغرة لليوناردو العالم الفنان . وفي فصل آخر صورة اخرى لليوناردو الانسان

بعض المصادر التي رجعنا اليها في هذا الفصل :

1 — Men of Art : Thomas Craven
2 — LeonardoDa Vinci : Siren
3 — دائرة المعارف البريطانية
4 — Lives of the Painters : Vasari